

تجليات الأبعاد الدلالية في قصيدة (في القدس) لتميم البرغوثي
Manifestations of semantic dimensions in a poem (In
Jerusalem) by Tamim Barghouti

أحمد ملياني، جامعة الشلف، (الجزائر)، a.meliani@univ-chlef.dz

تاريخ إرسال المقال: 2021/05/01 تاريخ قبول المقال: 03-07-2021

الملخص:

تقوم الدراسة الدلالية على أساس تحليل المفردات إلى مجموعة من البنى والأنظمة التي تتألف من عناصر تكسبها معانيها من خلال علاقتها في السياق، وهي رصد كل ما من شأنه أن ينتج المعنى ويولد الدلالة وينشئ الصور ويفصح عن مخزون الأفكار، وكلما كان النص ثريا بألفاظه كانت الدلالة غنية. ولا يمكن لأي مقارنة أن تلج الفضاء الإبداعي إلا إذا استطاعت أن تجلي الجوانب الدلالية (المعجمية)؛ فهي الهيكل الذي يمكن أن نستنتقه ونكشف منه الدلالات والجماليات.

إنّ هذه الورقة البحثية؛ وفي نزعها للتطبيق تعدُّ مسحا تحليلياً وبحثاً في الدلالة من خلال دراسة الحقول الدلالية المشكّلة لقصيدة (في القدس) لتميم البرغوثي، التي طبعت التجربة الشعرية لديه، سواء على مستوى التشكيل أو القيم التأويلية، فوهبت النص قدرة على الاستقطاب من خلال التجليات الجمالية والالتفاتات الفنية التي طبعت الأبعاد الدلالية في القصيدة من مثل الانزياح المترسّم في التكرار، والصور الرمزية والتكثيفات الاستعارية، وإيقاعية السرد الفني، التي تواشجت كلها في قالب واحدٍ مشكّلة لدلالة شاملة تمثلت في البعد المكاني.

الكلمات المفتاحية: الأبعاد الدلالية؛ الحقول الدلالية؛ تميم البرغوثي؛ في القدس.

Abstract:

The semantic study is based on analyzing the vocabulary into a set of structures and systems that consist of elements that gain their meanings through their relationship in the context, and monitoring everything that would produce meaning, generate meaning, create images, and disclose the store of ideas, and the more the text is rich in its expressions, the more the connotation is rich. No approach can enter the creative space unless it is able to clarify the semantic (lexical) aspects. It is the structure that we can question and reveal the connotations and aesthetics.

This research paper is; In its tendency to apply, it is an analytical survey and a research on semantics through the study of the semantic fields that constitute the poem (In Jerusalem) by Tamim Barghouti, which imprinted his poetic experience, whether at the level of composition or interpretive values. The semantic dimensions of the poem, such as the displacement inherent in repetition, symbolic images and metaphorical condensations, and the rhythm of artistic narration, which all co-existed in one form, forming a comprehensive significance represented in the spatial dimension.

Key words : Semantic dimensions ; Semantic fields ; Tamim Barghouti ; In Jerusalem.

مقدمة:

إن دراسة المستوى الدلالي في بناء نص ما، والشعري خاصة يتقاطع مع جميع المستويات الأسلوبية الأخرى، ويشمل ذلك الإيقاع بوصفه مستوى يمثل الوحدات غير الدالة، غير أن الدراسات المعاصرة أفضت إلى أن النص كائن كلي لا يتجزأ إلا لمقتضيات الدراسة والبحث ما دامت اللغة عنصراً مشتركاً يجمع بين هذه المستويات وينسق تعالقاتها¹. لهذا فإن هذا التقسيم لا يضع حدوداً فاصلة بين مستوى ومستوى آخر. والنص الذي أمامنا كفيل بإزالة هذه الحدود التي لم توضع إلا للوقوف على جوانبه الجمالية والفنية، من خلال الاعتماد على مبدأ الحقول الدلالية، التي تتوافق مع الدراسة الأسلوبية في نظرتها إلى الدلالة، بما تسهم به في الكشف عن طبيعة الألفاظ التي تشيع عند الشاعر والدلالات التي تقترن بها بغية الإفضاء إلى جوهر المعنى.

وعليه يمكن عرض إشكالية البحث في التساولين الآتيين:

ما هي أهم الأبعاد الدلالية التي توظفت في قصيدة (في القدس) لتميم البرغوثي؟

كيف انعكست تلك الأبعاد من خلال الحقول الدلالية على شعره من الناحية الجمالية والتأثيرية؟

المبحث الأول: نظرية الحقول الدلالية

يعرّف الحقل الدلالي بأنه مجموعة من الكلمات ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، ولكي تفهم معنى كلمة يجب أن تفهم مجموعة الكلمات المتصلة بها دلالياً، فمعنى الكلمة هو محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في داخل الحقل المعجمي، "وهدف التحليل للحقول الدلالية هو جمع كل الكلمات التي تخص حقلاً معيناً، والكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام"²، واستنباط الدلالات الضمنية والصريحة بالتحليل والتأويل.

وتقوم هذه النظرية على مبادئ عديدة حيث أنه:³

- لا بد أن تنتمي كل وحدة معجمية (كلمة) إلى حقل دلالي.
- لا يصح انتماء وحدة معجمية واحدة إلى أكثر من حقل دلالي.
- لا يمكن دراسة المفردات مستقلة عن تركيبها النحوي.
- لا يمكن إغفال السياق الذي ترد فيه الكلمة.

المطلب الأول: الأسس التي بنيت عليها نظرية الحقول الدلالية

أولاً: الاستبدال

وبعني "أن ثمة مفردات يمكن أن تحل كل مفردة محل أختها في الاستعمال، أو في الدلالة كلفظة (وَجِلَّ) ولفظة (خائف) ولفظة (متهيب من) فقد تعد هذه المفردات من المترادفات، ولكنها كلها تحت مفهوم الخشية والخوف"⁴. لذلك تميّزت نظرية الحقول الدلالية بخاصية الاستبدال والإثراء المعجمي من خلال نيابة كلمة عن أخرى، على أن تحمل معها المعنى نفسه.

ثانياً: التلاؤم

وبعني "أن علاقة المفردات بعضها مع بعض في كونها من باب واحد كما هو الحال في باب الألوان"⁵، "فهي تقع تحت المصطلح العام (لون) وتضم ألفاظاً مثل: أحمر، أزرق، أصفر، أخضر، أبيض..... إلخ"⁶. وقس على ذلك باقي المفردات التي تدخل ضمن باب واحد، يجمعها التلاؤم والتوائم النوعي.

ثالثاً: التسلسل والترتيب

وبعني أن "الترتيب يكون بحسب القدم والأهمية والأولوية وذلك نحو أيام الأسبوع، أو المقاييس، أو الأوزان، أو الترتيب الألف بائي"⁷. وذلك ما يحدد هيمنة حقل دلالي دون الآخر استعمالاً ودراسة، ويحدد بالتالي غائية التوظيف الاختياري التي يعمد إليه المبدع.

رابعاً: الاقتران

أي تقترن بعض مفردات الحقول الدلالية "بما يقرب دلالتها من الفهم أو يشرح فعلها، فاقتران (بعض) بالأسنان يميز لفظ (أسنان) من لفظ (أسنان المشط) و(أسنان المنشار) و(أسنان المسامير) لذلك فإنه لا تعرف الكلمة إلا عن طريق ما يصاحبها"⁸، فالسياق هو الذي يحدد طبيعة المفردات في الحق الدلالي، فيساعد الباحث في تأويلها.

وقد وسّع بعضهم مفهوم الحقل الدلالي ليشمل الأنواع التالية:⁹

- 1- الكلمات المترادفة والكلمات المتضادة.
 - 2- الأوزان الاشتقاقية، وأطلق عليها اسم الحقول الدلالية الصرفية.
 - 3- أجزاء الكلام وتصنيفاتها النحوية.
 - 4- الحقول السنتجماوية، وتشمل مجموعات الكلمات التي تترايط عن طريق الاستعمال ولكنها لا تقع أبداً في نفس الموقع النحوي، مثل: (كلب ونباح، فرس وصهيل، زهر وتفتح، طعام ويُقدم...).
- وتشعبت الحقول الدلالية لتشمل مفاهيم لغوية أوسع كالاقتناع والترادف والتضاد والحقول السنتجماوية التي تشمل مجموعة الكلمات التي تترايط عن طريق الاستعمال، ولكنها لا تقع أبداً في نفس الموقع النحوي.

المطلب الثاني: مميزات نظرية الحقول الدلالية

ومن أهم مميزات نظرية الحقول الدلالية:¹⁰

- 1- الكشف عن العلاقات الدلالية، وأوجه الشبه والاختلاف بين الكلمات التي تنصوي تحت حقل معين، وبينها وبين المصطلح العام الذي يجمعها.
- 2- إن جميع الكلمات داخل الحقل الدلالي وتوزيعها يكشف عن الفجوات المعجمية التي توجد داخل الحقل.
- 3- إن هذا التحليل يمدنا بقائمة من الكلمات لكل موضوع على حدة، كما يمدنا بالفروق اللغوية الدقيقة لكل لفظ .

كما يتم الاستعانة في هذه الدراسة الدلالية بنظرية التحليل التكويني، "ويبدأ هذا التحليل بعدما ينتهي تحديد الحقول الدلالية، وحشد الكلمات داخل كل حقل فلكي يتبين معنى كل كلمة وعلاقة كل منها بالأخرى، تستخلص أهم الملامح التي تجمع كلمات الحقل من ناحية، وتميز بين أفرادها من ناحية أخرى"¹¹، فهي عملية استنباط للخصائص المائزة بين المتشابهات في الحقل الدلالي الواحد.

ولكن ليست الكلمات داخل الحقل الواحد ذات وضع متساو، فهناك كلمات أساسية وكلمات هامشية، والأساسية هي التي تتحكم في التقابلات الهامة في داخل الحقل، لذلك فقد وضع العلماء معايير مختلفة للتمييز بين النوعين ومنها:¹²

أ- الكلمة الأساسية تكون ذات وحدة معجمية واحدة.

ب - الكلمة الأساسية لا يتقيد مجال استخدامها بنوع محدد أو ضيق من الأشياء، فالشفرة في الاستعمال الحديث لا تطلق إلا وصفا للشعر والبشرة، ولذا لا يمكن أن تكون كلمة أساسية، أما الحمرة فيأتي استعمالها غير مقيد وغير محدد، لذا فهي كلمة أساسية.

ج- الكلمة الأساسية تكون ذات تميز وبروز بالنسبة لغيرها في استعمال ابن اللغة.

د- الكلمة الأساسية لا يمكن التنبؤ بمعناها من معنى أجزائها بخلاف أزرق وأخضر مثلا.

هـ- لا يكون معنى الكلمة الأساسية متضمنا في كلمة أخرى ما عدا الكلمة الأساسية التي تغطي مجموعة من المفردات، مثال الكلمة الأساسية: زجاجة، كوب،... لا تتضمنها كلمة أخرى سوى الكلمة الرئيسية (وعاء).

و- الكلمات الأجنبية الحديثة الافتراض من الأغلب ألا تكون أساسية.

ز- الكلمات المشكوك فيها تعامل في التوزيع معاملة الكلمة الأساسية.

المبحث الثاني: التعريف بالشاعر تميم البرغوثي وقصيدته (في القدس):

سنتطرق خلال هذا الجزء من المقال إلى تعريف موجز بالشاعر الفلسطيني تميم البرغوثي، وتجربته الشعرية ونتاجاته الأدبية والعلمية، ثم نرجع إلى التعريف بقصيدته (في القدس) محل الدراسة، ميرزين في ذلك أسباب اختيارها؛ وتركيبها الفنية والجمالية.

المطلب الأول: التعريف بالشاعر تميم البرغوثي

ولد تميم البرغوثي في القاهرة عام 1977م، وهو ابن الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي، والروائية المصرية رضوى عاشور، وفي نفس الفترة التي ولد فيها تميم كانت الحكومة المصرية قد شرعت في عملية السلام مع إسرائيل، التي انتهت بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد عام 1979، فطرد الرئيس المصري السابق أنور السادات معظم الشخصيات الفلسطينية البارزة آنذاك، وكان من ضمنهم الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي، لذلك قضى تميم طفولته في مصر قبل أن تنتسب له العودة إلى فلسطين¹³.

حصل تميم البرغوثي على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام 1999 من جامعة القاهرة، وعلى ماجستير في العلاقات الدولية والنظرية السياسية من الجامعة الأمريكية في القاهرة، كما حصل على شهادة دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بوسطن في أمريكا عام 2004.

* عمل أستاذا مساعدا للعلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.

* محاضرا بجامعة برلين الحرة بألمانيا.

* عمل بقسم الشؤون السياسية بالأمانة العامة للأمم المتحدة بنيويورك (لجنة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني)

* عمل في بعثة الأمم المتحدة بالسودان.

* وبين عامي 2011 و 2014 عمل تميم البرغوثي استشاريا للجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا، وقاد مجموعة بحثية لإصدار تقرير عن مستقبل العالم العربي حتى 2013.

* التحق تميم البرغوثي بالعمل الدبلوماسي في لجنة الأمم المتحدة، مساعدا للأمين التنفيذي ووكيلا للأمين العام للأمم المتحدة عام 2015.¹⁴

للشاعر تميم البرغوثي ستة دواوين باللغة العربية الفصحى، وبالعاميتين الفلسطينية والمصرية،

وهي:

1- **ميجنا**: عن بيت الشعر الفلسطيني برام الله عام 1999، وهو أول مجموعة شعرية كتبها تميم البرغوثي باللهجة الفلسطينية العامية، عندما عاد إلى فلسطين للمرة الأولى في عام 1998.

2- **المنظر**: عن دار الشروق بالقاهرة عام 2002، وهو ديوان منشور باللهجة المصرية.

3- **قالوا لي بتحب مصر قلت مش عارف**: عن دار الشروق بالقاهرة عام 2005، وهو ديوان منشور باللهجة المصرية.

4- **مقام عراق**: عن دار أطلس للنشر بالقاهرة عام 2005، وهو ديوان منشور بالعربية الفصحى.

5- **في القدس**: عن دار الشروق بالقاهرة عام 2009، وهو ديوان منشور بالعربية الفصحى.

6- **يا مصر هانت وبانت**: عن دار الشروق بالقاهرة عام 2012، بالعامية المصرية.

كما نشر عدة قصائد في عدد من الصحف والمجلات العربية كأخبار الأدب، الدستور، العربي، القاهريات، السفير اللبنانية، الرأي الأردنية، والأيام والحياة الجديدة الفلسطينيتين.

له كتابان في العلوم السياسية، الأول بعنوان الوطنية الألفية: الوجد وبناء الدولة الوطنية في ظل الاستعمار، صدر عن دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة عام 2007، والثاني بالإنجليزية عن مفهوم

الأمة في العالم العربي¹⁵.

ازدادت شهرة تميم البرغوثي إثر اشتراكه في برنامج أمير الشعراء عام 2007 (وهو برنامج نظّمته لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والإدارية في إمارة أبي ظبي بالإمارات)، وشارك في المسابقة 35 شاعرا من مختلف أنحاء الوطن العربي تنافسوا على اللقب، قدّم تميم عدة قصائد خلال المسابقة، وتمكن من الوصول إلى المرحلة الأخيرة و الفوز بالمركز الخامس. وعرف بحضور القدس الدائم في شعره وانتصاره لقضية شعبه¹⁶.

المطلب الثاني: التعريف بقصيدة (في القدس) لتميم البرغوثي

أما قصيدته (في القدس) فقد حظيت بقدر وافر من الاهتمام على الصعيدين النقدي والأدبي. كما حققت انتشارا جماهيريا واسعا، وقد ضمنت لتميم هذه المنزلة بين غيره من الشعراء وهذه الخطوة لدى جمهوره العربي، حتى تنافس في قراءتها أطفال المدارس، وكان تميم البرغوثي قد شرع في كتابة هذه القصيدة بعد زيارته الأولى للقدس عام 1998م، وقد كانت زيارة قصيرة حيث لم يكن مسموحا له المبيت فيها، فكتب هذه القصيدة متأثرا بذلك¹⁷

وموضوعها العام هو القدس، يتحدث الشاعر فيها عن وصف القدس وعن شوقه لها، ثم يعرض تاريخها العريق، ووضعها البئيس في ظل الاحتلال الإسرائيلي. يبدأها بستة أبيات عمودية، وأما باقي القصيدة فحر على نمط شعر التفعيلة، حيث يبدأ في مقدمة قصيدته بمخاطبة نفسه ويمثيها بزيارة القدس، والمكوث بها، ويحاول وصف اللقاء والزيارة بأسلوب حكّمي رمزي، إذ يقول:

وما كلُّ نفسٍ حينَ تلقَى حَبِيبِهَا
تُسَرُّ ولا كُلُّ الغِيَابِ يُضَيِّرُهَا
فإن سرَّها قبلَ الفِراقِ لِقَاؤُهُ
فليسَ بمأمونٍ عليها سرُّوزُها
متى تُبْصِرَ القدسَ العتيقةَ مرَّةً
فسوفَ تراها العَيْنُ حينَ تُدِيرُهَا¹⁸

ثم يشرع بعد ذلك في وصف ما شاهده في القدس، وصفا حقيقيا أو وصفا مجازيا؛ وصفا حقيقيا لحاراتها وشوارعها وطرقاتها، ووصفا مجازيا تاريخيا حضاريا لما تمتاز به القدس من عراقة وتاريخ. كما يكتنز النص بالتصوير والتناص واستدعاء الأحداث والشخصيات التاريخية، بل كثيرا ما كان يخاطب التاريخ، وكأنه يحاول تقديم الدليل والبرهان على أحقيته وملكيته لهذا المعلم المقدّس. فيقول في بعض المقاطع:

(وَتَلَقَّتْ التَّارِيخُ لِي مُتَبَسِّمًا...)

(يا كاتبَ التَّارِيخِ مَهْلًا...)

(يا كاتبَ التَّارِيخِ ماذا جَدَّ فاستثنتنا...)

وبعد سلسلة من الشوق والحنين، والأسى والشكوى التي في قصيدته، يختم قصيدته بشيء من

الأمَل بقوله:

لا تَبكِ عَيْنُكَ أَيُّهَا الْمَنَسِيُّ مِنْ مَتْنِ الْكِتَابِ

لا تَبكِ عَيْنُكَ أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ وَاعْلَمْ أَنَّهُ

فِي الْقُدْسِ مِنْ فِي الْقُدْسِ لَكُنْ

لا أَرَى فِي الْقُدْسِ إِلَّا أَنْتَ¹⁹

المبحث الثالث: الحقول الدلالية المكونة للقصيدة

إننا نميز في النص الشعري الذي أمامنا حقلا دلاليا محوريا، وهو حقل الحيز المكاني، والذي غلبت مفرداته في تشكيل الموضوع وإبرازه، فقد أسهب الشاعر "تميم البرغوثي" في صوره عن المكان الجغرافي، والذي تدور فيه الأحداث، وهو المكان الذي يغري الشاعر فيتحوّل إلى موضوع متخيل عبر بنيات سياقية وجمالية مختلفة، تخضع لها باقي الحقول الدلالية وتدور في فلكها، محاولة من الشاعر رسم خارطة ضخمة من الأمكنة في صوره الشعرية المتجسدة في قصيدته "في القدس".

ومن أبرز الحقول الدلالية المكوّنة للقصيدة نذكر ما يلي:

المطلب الأول: حقل الحيز المكاني

ويتضمن ما يلي:

دار الحبيب، الدار، سورها، في القدس (30 مرة)، جانب الدرب، دورها، القدس (4 مرات)، حيث، جورجيا، البيت، البولون (بولندا)، شارع، السوق، الساحات، أسوار، أمامك، متن نص، حاشية، وجه المدينة، خلفها، المدينة (2 مرة)، حذار، فوق القباب، أبنية، مثن الأضلاع، قبة الصخرة، أعمدة الرخام، نوافذ، خارج العتبات، مدرسة مملوك، وراء النهر، سوق نخاسة، أصفهان بغداد، حلب، مصر، بابل، الهند، دكان عطار، خان الزيت، بناية، دولة، الهوامش، نص المدينة، شمال، بابها، خلفنا، وراء، متن الكتاب.

ولقد تجسدت هذه المداخل المعجمية المكوّنة لحقل الحيز المكاني في بنيات سياقية وجمالية

مختلفة، نذكرها وهي:

- 1- السرد القصصي الفني الشائق، والذي لا يكاد يحمل صورة دلالية غير مألوفة لدى القارئ.
- 2- مشهدية الصورة في الدلالة عن الحدث والرؤية الشعرية المجسدة في ذكره للمكان، كما في قوله:
في القدس رائحةً تُلَخَّصُ بَابِلًا وَالْهِنْدَ فِي دَكَانِ عِطَارِ بَخَانِ الزَّيْتِ
وَاللَّهِ رَائِحَةٌ لَهَا لُغَةٌ سَتَفْهَمُهَا إِذَا أَصْغَيْتَ²⁰
- 3- اعتماد التكرار الفني في تصوير المكان من خلال تكرار لفظة (في القدس) وكلمة (القدس).
- 4- حضور المكان في القصيدة من خلال الصور الفنية ذات القيمة الجمالية البليغة مثل قوله: وجه المدينة، نص المدينة، متن نص...
5- اعتماد الصور الرمزية في التعبير عن المكان جاعلا بذلك النص مفتوحا على باب التأويل لدى المتلقي، كالصورة الرمزية في قوله:

ونوافذُ تَعْلُو الْمَسَاجِدَ وَالْكَنَائِسَ،

أَمْسَكَتْ بِيَدِ الصُّبْحِ تُرِيهِ كَيْفَ النَّقْشُ بِالْأَلْوَانِ،

وَهُوَ يَقُولُ: "لا بل هكذا"،

فَتَقُولُ: "لا بل هكذا"²¹

- 6- تدقيق المشهد وتعميقه من خلال استعمال ظروف المكان، مثل: جانب، حيث، أمامك، خلفها...

المطلب الثاني: حقل الشخوص

ويتضمن ما يلي:

بائع خضرة، زوجة، فتية، شرطي، مستوطن، سياح، امرأة، الجند، فتى، القوم، الخلق الجميع، الجنين، الأب، البنين، أمة، تاجر، أمير، صاحب، السلطان، العباد، شيخ (2 مرة)، أهل، الفقراء، الملاك، كاتب التاريخ، سائق السيارة.

جاءت شخوص القصيدة في غالبها استجابة للإيقاع السردى القصصي الشائق، حيث عمد الشاعر على تراكم المشاهد والصور التي تعج بالحياة في زمنها القديم وواقعها المعاصر. كما في قوله:

في القدس، بائعُ خضرةٍ من جورجيا برّمَ بزوجته

يفكرُ في قضاءِ إجازةٍ أو في طلاءِ البيتِ

في القدس، توراَةٌ وكهْلٌ جاءَ من منْهاتِنِ العُلْيَا

يُفَقِّهُ فِتْيَةَ البُولُونِ فِي أَحْكَامِهَا

في القدسِ شرطيٌّ من الأحباشِ يُغْلِقُ شَارِعاً فِي السُّوقِ،

رَشَّاشٌ عَلَى مَسْتَوِطٍ لَمْ يَبْلُغِ الْعَشْرِينَ،
قُبَّعَةٌ تُحْيِي حَائِطَ الْمَبْكَى
وَسِيَاخٌ مِنَ الْإِفْرَنْجِ شُقَّرَ لَا يَرُونَ الْقُدْسَ إِطْلَاقاً
تَرَاهُمْ يَأْخُذُونَ لِبَعْضِهِمْ صُوراً
مَعَ امْرَأَةٍ تَبِيعُ الْفَجَلَ فِي السَّاحَاتِ طَوَلَ الْيَوْمِ²²

المطلب الثالث: حقل الحيز الزماني

ويتضمن ما يلي:

حين (2 مرة)، متى، طول اليوم، في المدى، الزمان، مذ، ساعة، دهرها، دهر أجنبي، خلال النوم، عبر السنين، في الحصار، الأزمان، الصباح، الصباح، بضع سنين، من بعد، قبلنا، قبل الغياب تاريخ المدينة.

يأتي تميم البرغوثي بضبط لزمانية المكان، فالقدس تعيش زمنين في وقت واحد، فالزمن الأول هو زمن وواقع المحتل الذي لا يتغير، والواقع الثاني الحقيقي الكامن المثلث الذي يمشي بلا صوت، ويتمثل هذا من قوله:

يا كاتبَ التاريخِ مهلاً،
فالمدينةُ دهرها دهران
دهر أجنبي مطمئنٌ لا يغيرُ خطوهَ وكأنَّه يمشي خلالَ النومِ
وهناك دهرٌ، كامنٌ مثلثٌ يمشي بلا صوتٍ حذارِ القومِ²³

المطلب الرابع: الحقل الديني

ويتضمن ما يلي:

توراة، صليبا، حائط المبكى، الإنجيل، القرآن، خطبة جمعة، مدت أيديها (الدعاء)، المساجد الكنائس، نوافذ الرحمن، المعجزات، القبور، كافر، مؤمن، الفجار، أهل الله، النساك. يعود تميم إلى تصوير القدس تصويراً مشرقياً، فالحجارة فيها اقتبست عباراتها من الإنجيل والقرآن، محاولاً إثبات صورة القدس وتاريخها وتجليا لفلسطينية القدس، فكل ما فيها له لسان ينطق بعراقها وأصالتها وإسلاميتها، ويتمثل هذا في قوله:

في القدس أبنيةً حجارُها اقتباساتٌ من الإنجيل والقرآن
في القدس تعريفُ الجمالِ مُثَمَّنُ الأضلاعِ أزرَقُ،

فَوْقَهُ، يَا دَامَ عِرْكَ، قُبَّةٌ ذَهَبِيَّةٌ،
تبدو برأيي، مثل مرآة محدبة ترى وجه السماء مُلَخَّصاً فيها
تُدَلِّهَا وَتُدْنِيهَا
تُورِّعُهَا كَأَكْيَاسِ الْمَعُونَةِ فِي الْحِصَارِ لِمَسْتَحِقِّيهَا
إِذَا مَا أُمَّةٌ مِنْ بَعْدِ خُطْبَةِ جُمُعَةٍ مَدَّتْ بِأَيْدِيهَا
وَفِي الْقُدْسِ السَّمَاءُ تَفَرَّقَتْ فِي النَّاسِ تَحْمِينًا وَنَحْمِيهَا
وَنَحْمُلُهَا عَلَى أَكْتِافِنَا حَمَلًا
إِذَا جَارَتْ عَلَى أَقْمَارِهَا الْأَزْمَانُ²⁴

المطلب الخامس: حقل الغياب والألم

ويتضمن ما يلي:

الغياب، الفراق، تلفت، واقعها السميكة، سواك، إلا أنت، بينها (فراقها)، تركض، ودعتك، الخلف، ضاقت، وحدنا، نائيا، الباكي، المنسي.
يعمد الشاعر إلى التجسيد والتشخيص حين شخص التاريخ، وقام بمحاورته والإصغاء إلى صوته دون الأخذ به، "وربما جاء التبسم من باب بث روح التهذئة في قلب الشاعر اللاهث خلف غزالته التي غيَّبها الاحتلال خلف قضبانه"25، فيقول:

وَتَلَفَّتَ التَّارِيخُ لِي مُتَبَسِّمًا
أَظُنُّنْتَ حَقًّا أَنَّ عَيْنَكَ سَوْفَ تَخْطِئُهُمْ، وَتَبْصُرُ غَيْرَهُمْ
هَا هُمْ أَمَامَكَ، مَثْنُ نَصِّ أَنْتَ حَاشِيَةٌ عَلَيْهِ وَهَامِشٌ
أَحْسَبْتُ أَنَّ زِيَارَةَ سَتْرِيحٍ عَنْ وَجْهِ الْمَدِينَةِ يَا بُنَيَّ
حَجَابَ وَاقِعِهَا السَّمِيكَ لَكِي تَرَى فِيهَا هَوَاكَ
فِي الْقُدْسِ كُلِّ فَتَى سَوْكَ²⁶

المطلب السادس: حقل الألفاظ التاريخية والأقوام

ويتضمن ما يلي:

الأحباش، الإفرنج، المغول، التاريخ، مملوك (الظاهر ببيرس)، الزنج، الإفرنج، الففجاج الصقلاب، البشناق، التاتار، الأتراك، الهلاك، العربي.

ساق تميم البرغوثي الألفاظ الدالة على التاريخ في سياق متشابهات متوالية، وهي خاصة أكسبت المقطع الشعري إيقاعية متخفية داخل البناء الشعري، إذ استعان بها الشاعر لتولّد إيقاعاً داخلياً منسجماً ومتناغماً. كما في قوله:

فيها الزنجُ والإفرنجُ والقفجاقُ والصقلابُ
والبُشناقُ والتاتارُ والأتراكُ، أهلُ الله والهلاكِ،
والفقراءُ والملاكِ، والفجارُ والنسائكُ²⁷

المبحث الرابع: دلالة الحقول الدلالية المكونة للقصيدة

من خلال الحقول الدلالية المكونة للقصيدة، نستنتج بأنها تستحق الدراسة لما تحتويه من بُنى مشفرة، والتي تتطلب تبيان دلالاتها، وما ميز قصيدة "في القدس" معجماً هو كثافة المظاهر المكانية فيها وتنوع حضورها وتمثلاتها البصرية والنفسية والخيالية، حتى أن حقل الحيز المكاني غلب على القصيدة والتفت حوله باقي الحقول الأخرى وتضافرت في إكمال رسم حدوده وإبرازها وكأنها امتداد له على الرغم من تراوحها بين الكثرة والقلّة، وفيما يلي قراءة تأويلية للحقول الدلالية للقصيدة:

1- يُعد "الشعر الجاهلي من أقدم الأشعار التي حفلت بالتجربة المكانية، متجلية في الوقوف على الطلل"²⁸، وهذا ما حاوله الشاعر تميم البرغوثي في المطلع الاستهلاكي للقصيدة والمنظوم على نمط القصيدة العربية التقليدية من الوقوف على طلل الأحبة المتمثل في مدينة القدس، عندها أخذ يعزي نفسه، وهو هنا يحدث تماهياً مع موضوع القصيدة وهو مدينة القدس وصراعها بين أصالتها المتجدرة في أعماق التاريخ وبين واقعها الحالي تحت الاحتلال.

2- لقد أكثر الشاعر من الألفاظ الدالة على الحيز المكاني كون الشاعر عاش مع القدس وفي القدس، فالمكان هو مكان الشاعر حتى وإن حاول المحتل طمس معالمه وتغيير ملامحه إلا أن "تميم" يرى أن القدس لم تتغير ولا تزال مواجهة للحقيقة والواقع بصلابة وقوة، فالصراع القائم هو صراع المكان فالشاعر يرى في القدس الحياة بصخبها الوجودي وحركتها العامرة بالتاريخ.

3- محاولة الشاعر رسم حدود المكان مع إظهار للمعاناة التي تعانيها هذه المدينة المقدسة، والتي ارتبطت بكل زاوية منه، بنبرة يلفها التشاؤم عامداً في ذلك على تكرار كلمة "في القدس" و"القدس" وهذا "يعمل على تركيز المكان (وما داخل المكان) في ذاكرة المتلقي، حتى تنطبع في مخيلته، ويشارك المبدع متعة ذلك المكان"²⁹. وذلك جوهر التلقي والرؤية الأسلوبية في إقحام القارئ أو المتلقي في مضان النص

"فتختلف بالتالي الصورة الشعرية من نص المكان المحبوب إلى نص المكان المعادي، فتختلف بالتالي استجابة القارئ للصورة، فيشترك مع الكاتب في متعة المكان"³⁰. بعدما حققت لديه صدمة جمالية أشركته في إنتاج النص وترسيم الدلالة.

4- يحاول "تميم البرغوثي" التأكيد من خلال المظاهر المكانية على قدسية القدس وفلسطينيتها وعرابيتها المتجذرة في التاريخ قبل اليهود، وقبل أن يعرف الناس اليهود، وإثبات صورة القدس وتاريخها العريق من خلال المكان الذي يبرهن ويشهد على كل من مر من هناك، فكل ما في القدس وإن لم ينطق يدل مظهره على عراقية هذه المدينة المقدسة.

5- مواجهة الظرف النفسي الطارئ الذي شعر به الشاعر بعد منعه من دخول القدس ومحاولة التخفيف من حجم الصدمة، فعمد إلى تشكيل خارطة ضخمة من الأمكنة جاعلا منها أنيسا له في وحشته هذه، ودلالة على حضور الانتماء وتأسيس المكان الحلم كبعد جديد يحول الوجود في المكان المسترجع من خلال الحلم والصورة الشعرية.

6- يأتي حقل الشخص في الرتبة الثانية ورودا بعد حقل الحيز المكاني، إذ تشارك الشخصيات في الدلالة على المكان من خلال تجسيد الصورة الواقعية ورسم المشاهد داخل المدينة، وهي دلالة على إظهار مختلف شرائح المجتمع، وتصوير حركة المدينة من تجارة وعبادة وصناعة وبيع وشراء، إنها روح الحياة بامتداداتها وصخبها الوجودي الكثيف الإيجابي.

7- تأكيد مبدأ الغيابية رغم الأحقية بالحضور، فيصور الشاعر الشخصيات الاحتلالية التي هيمنت على المدينة مثل: بائع خضرة، المتدين اليهودي، الشرطي، المستوطن، السائحون الإفرنج... وفي المقابل يذكر شخصيات إسلامية تثبتنا للهوية والشخصية الفلسطينية المقدسة.

8- حقل الحيز الزماني نجده مرتبطا بالمكان "فجمالية المكان بهذا المعنى هي جمالية ذات بعد مأساوي ناتج عن صراع يحكم المكان في زمنه"³¹، والزمن في القصيدة مختلفة فتراته وتزيد من فاعلية حضور القدس في المشهد الشعري، ودلالة عن تأثير القدس في الشاعر في كل لحظة من لحظات حياته، "إن الشاعر قصد من ذلك أن الزمن مصاحب له ولصوره وما ينعكس فيها من إجراءات احتلالية مستمرة طيلة الوقت"³²، وهذا يدل على أن الشاعر وُفق في توظيف الزمن توظيفا دلاليا له قيمته على مستوى النص الشعري.

9- وظّف "تميم" الحقل الديني دلالة على أصالة القدس وعراقتها وتاريخها العربي والإسلامي الواضح المعالم والبعيد عن كل ما يشوبه من تحريف وتزييف ومحاولة طمس للهوية، فالقدس مهبط الرسالات والأديان.

10- أوحى حقل الألفاظ التاريخية والأقوام بإحساس الشاعر بالاغتراب في وطنه بعد أن امتلكه غيره من الأقوام وهو الأحق به، وفي المقابل ذلك أكد على تاريخ القدس العريق ولا وجود لليهود الذين لا تاريخ لهم في المدينة.

الخاتمة:

أظهر الشاعر موهبة في قدرته على إحياء الألفاظ المغمورة في المعجم اللغوية والباسها لبوس البهاء والجمال، ما يجعل المتلقي يشعر أن هذه البنية لم تصنع من قبل. فقد تميّز معجم تميم البرغوثي في قصيدته (في القدس) من خلال الحقول الدلالية المكوّنة لها بالتجانس والتّماسك، فكان معجمه معجمًا ثريًا، ساهم في إيضاح الصورة وتعميق الدلالة التي ارتبطت أساسا بالمكان الذي غلبت مفرداته على كامل القصيدة، فما ميّزها معجميا هو كثافة المظاهر المكانية وتنوع حضورها؛ حتى التفت حولها باقي الحقول الأخرى وتضافرت في إكمال رسم حدودها وإبرازها وكأنها امتداد لها.

كما أن الحقول الدلالية في قصيدة (في القدس) لتميم البرغوثي اتخذت أدوات ومخرجات جمالية خالفت توقع القارئ وحققت لديه متعة؛ من مثل التكرار الذي أدى دلالة إيحائية ذات طاقة تعبيرية عالية، شخّصت الحالة الشعورية المتأزّمة للشاعر، الذي سعى إلى إبرازها للسامع بطرائق وصيغ عديدة، فكان التكرار بذلك تجليا واضحا للبعد الدلالي في القصيدة.

اتكأ الشاعر في معجمه اللغوي على توظيف الصور الرمزية، التكنيفات الاستعارية، الحوار المؤنسن والسرد القصصي الشائق، التي عبّرت عنها الحقول الدلالية المختلفة في القصيدة، بغية تحقيق جمالية مضاعفة للصورة الدلالية، وجعلها في تركيب موحد متناسق ذي زخم دلالي، وعمق إيحائي.

الهوامش:

- 1- بشير ضيف الله، الوقائع الأسلوبية وخصوصياتها في قصيدة لاعب النرد، منشورات ANEP، الجزائر، 2013، ص: 157.
- 2- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط: 5، 1998، ص: 79، 80.
- 3- محمد سعد محمد، في علم الدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط: 1، 2002، ص: 47.
- 4- بالمر، علم الدلالة. إطار جديد، ت: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط: 1، 1995، ص: 78.
- 5- نفسه، ص: 80.
- 6- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص: 79.
- 7- رشيد عبد الرحمن العبيدي، مباحث في علم اللغة واللسانيات، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط: 1، 2002، ص: 191.
- 8- نفسه، ص: 192.
- 9- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص: 80، 81.
- 10- رجب عبد الجواد، دراسات في الدلالة والمعجم، دار غريب، القاهرة، مصر، 2001، ص: 26.
- 11- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص: 121.
- 12- نفسه، ص: 96، 97.
- 13- ينظر: عصام شرتح، تميم البرغوثي. تجليات المتخيل الجمالي، ط: 01، دار عقل للنشر والدراسات والترجمة، دمشق، سوريا، 2018، ص: 143.
- 14- ينظر: عصام شرتح، تميم البرغوثي. دراسة نصية في المحفزات الجمالية، ط: 01، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 2012، ص: 06.
- 15- ينظر: عصام شرتح، تميم البرغوثي. دراسة نصية في المحفزات الجمالية، ص: 06.
- 16- ينظر: عصام شرتح، تميم البرغوثي. تجليات المتخيل الجمالي، ص: 146.
- 17- ينظر: تميم البرغوثي، في القدس، ط: 2، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2015.
- 18- ينظر: نفسه، ص: 07.
- 19- ينظر: نفسه، ص: 12.
- 20- نفسه، ص: 10.
- 21- نفسه، ص: 10.
- 22- نفسه، ص: 08.
- 23- نفسه، ص: 09.
- 24- نفسه، ص: 09.
- 25- فيصل غوادرة، "صورة القدس في شعر تميم البرغوثي، ديوانه "في القدس" أنموذجا"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، فلسطين، العدد: 25، أيلول 2011، ص: 20.
- 26- تميم البرغوثي، الديوان، ص: 8.
- 27- نفسه، ص: 11.
- 28- فتيحة كحلوش، بلاغة المكان، قراءة في مكانية النص الشعري، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، 2008، ص: 66.
- 29- فيصل غوادرة، صورة القدس في شعر تميم البرغوثي، ص: 45.

30- فتحة كحلوش، بلاغة المكان، قراءة في مكانية النص الشعري، ص: 245.

31- يمني العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط: 1، 1998، ص: 111.

32- فيصل غوادرة، صورة القدس في شعر تميم البرغوثي، ص: 43.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

1. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط: 5، 1998.

2. بالمر، علم الدلالة. إطار جديد، ت: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط: 1، 1995.

3. بشير ضيف الله، الوقائع الأسلوبية وخصوصياتها في قصيدة لاعب النرد، منشورات ANEP، الجزائر، 2013.

4. تميم البرغوثي، في القدس، ط: 2، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2015.

5. رجب عبد الجواد، دراسات في الدلالة والمعجم، دار غريب، القاهرة، مصر، 2001.

6. رشيد عبد الرحمن العبيدي، مباحث في علم اللغة واللسانيات، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط: 1، 2002.

7. عصام شرتح، تميم البرغوثي. تجليات المتخيل الجمالي، ط: 01، دار عقل للنشر والدراسات والترجمة، دمشق، سوريا، 2018.

8. عصام شرتح، تميم البرغوثي. دراسة نصية في المحفزات الجمالية، ط: 01، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، 2012.

9. فتحة كحلوش، بلاغة المكان، قراءة في مكانية النص الشعري، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط: 1، 2008.

10. محمد سعد محمد، في علم الدلالة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط: 1، 2002.

11. يمني العيد، فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط: 1، 1998.

ثانياً: المقالات

1. فيصل غوادرة، "صورة القدس في شعر تميم البرغوثي، ديوانه "في القدس" أنموذجاً"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، فلسطين، العدد: 25، أيلول 2011.